مدن ومواقع إسلامية

المحاضرة الأولى

المرحلة الثانية

(نشأة المدن القديمة في العراق)

م.م علي احسان عبد علي

المحاضرة الاولى

نشأة المدن القديمة في العراق

مثلت عملية التفاعل بين الانسان والقدرات الطبيعية الكامنة في المكان، المقومة الاساسية في نشوء المدن الاولى في مختلف بقاع العالم القديم، ورافقت عملة التفاعل هذه مجموعة من التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والتكنولوجية وغير من المؤثرات التي تنعكس على الجوانب الفكرية والحضارية، والتي ادت الى ظهور الحاجة الى النظام والسيطرة، وهنا بدأت اولى بوادر المدن بالنشوء والتطور والازدهار.

اكتشفت اولى مستوطنات السكن في قرية جرمو بداية المستوطنات الحضرية التي تعود الى الالف السابع قبل الميلاد، ويشير Lampel الى ان الفائض في المنتوجات الزراعية هو من افسح المجال امام السكان لممارسة فعليات مختلفة واكثر تخصصاً وهو ما اسهم في قيام المدن الاولى؟

كان اختيار موضع المدن يقع بالقرب من ضفاف الانهار في بلاد الرافدين وتقع على احدى ضفتي النهر كما في مدينة سبار وخفاجي، وفي حالات اخرى تتوسع الى الضفة الاخرى من النهري اذ اقتضت الحاجة لذلك، كما حصل في كيش وبابل ونفر ، وبهذه الحالة تكون المنطقة المركزية من المدينة التي تشتمل على المعبد والقصر في جانب واحد من جانبي المدينة، كما في بابل، لكن بعض المدن ونتيجة لتوسع الجانب الاخر وازدهاره على حساب الجزء الذي يقع فيه مركز المدينة يتم تشييد مركز جديد في الجزء الجديد من المدينة.

عوامل ومحددات اختيار مواقع المدن

اولاً: العوامل الطبيعية: شيدت اغلب المدن القديمة على ضفاف النهرين دجلة والفرات او احد فروعهما كون الماء المصدر الاساس للحياة، ودوره المهم في النقل وتوفير طرق المواصلات، وكذلك ما يوفره من حماية طبيعية للمدن، كما اسهمت التغيرات المستمرة

على تغيير مجرى نهر الفرات لمجراه يفسر لنا اسباب اضمحلال العديد من المدن في المناطق الجنوبية من بلاد الرافدين.

كذلك من العوامل الطبيعية الاخرى التي اثرت على اختيار مواقع المدن وعلى هيئتها الحضرية اتجاه الرياح السائدة في العراق، حيث اخذت هذه الرياح بنظر الاعتبار اتجاه الرياح السائدة في العراق

ثانياً: الموقع الجغرافي: تلعب اهمية الموقع الجغرفي دوراً مهماً في توفير الحماية الطبيعية له، فضلاً عن توفير طرق المواصلات المناسبة، وهي عوامل اساسية في اختيار الموقع، وقد وفرت الطوبوغرافية المتنوعة للمناطق الشمالية امكانيات حماية وتحصين طبيعية، في حين تم الاستعاضة عن هذه الخاصية في المدن الجنوبية والوسطى المنبسطة ببناء الاسوار الضخمة التي يتم من خلالها تحصين المدن.

ثالثاً: العوامل والقيم الروحية: اعتقد سكان العراق القدماء بقدسية بعض المواضع دون غيرها، لذا حرصو على بناء المدن على ذات الموقع ولطبقات متعددة، ومن امثلتها ان مدينة اريدو بقيت مؤهوله بالسكن لمدة اكثر من الفي سنة لمكانتها الدينية المرموقة ولقدسية موقعها، كما اثرت المعتقدات الدينية على توجيه المدن، خصوصا المضلعة منها بأن توجه اركانها نحو الجهات الكونية الاربعة.

المكون الحضري لمدن العراق القديم

بدأت مكونات الهيئة الحضرية في مدن العراق القديم منذ المراحل التكوينية الاولى لمدن العراق القديم، وبقيت هذه المكونات من اهم خصائص المدينة على مر العصور بالرغم من بعض الاختلافات التفصيلية ومن هذه المكونات:

- النواة او المراكز الحضرية: اهم واول عنصر شيد في المدن العراقية القديمة كان المعبد، أذ يمثل في نظر العراقيين القدماء مقر الالهة على الارض، لذا فانه يتمتع بقدسية خاصة تنعكس على موقع المعبد بحد ذاته، ومنذ الالف الخامس قبل الميلاد وجد المعبد كنمط بنائي واضح المعالم والاستخدام، واصبح نواة لتجمع فعاليات المدينة الاخرى والتي تمثل مناطق السكن وخدماته في المدن الاولى.

تمثل قدسية المعبد ادت الى تشييد المعبد تلو الاخر وفي عصور مختلفة وعلى الموقع ذاته، وهو ما ادى الى تحول موقع المعبد عبر الزمن الى مرتفع او تلة، وقد اكتسبت هذه الصفة ابعاد رمزية حتى بات وجود المعبد على هضبة مرتفعة مهيمنة على المشهد الحضري، وهو احد المعالم الاساسية للمدن العراقية، ومنها نشأت فكرة الهضبة الحضرية، سواء كانت تلك المرتفعات هضبة او تلة سواء كانت طبيعية بفعل الطبقات المتكررة للبناء او صناعية في المدن حديثة التشييد.

ارتبط مفهوم التحول الذي طرأ على النواة الحضرية بجانبين هما:

الجانب الاول: مكونات النواة الحضرية:

مثل المعبد العنصر الاساس في عصور ما قبل التاريخ وبداية عصر فجر السلالات وهي العصور التي كان المعبد فيها يمتلك سلطة مطلقة، كما في مدن اريدو والعقير والوركاء واور في بداية تأسيسها، في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد ظهر القصر كنمط بنائي جديد نتيجة انفصال السلطتين الدينية والتشريعية او السياسية، فأصبحت النواة الحضرية بعد الالف الثالث قبل الميلاد مكونة من المعبد او مجمع المعابد بالاضافة الى القصر الملكي، كما في مدينة اور في عصر الملك اور نمو من السلالة الثالثة، وبقيت النواة الحضرية في العصور اللاحقة تضم جميع الفعاليات الدينية والسياسية.

الجانب الثاني: موقع النواة الحضرية:

كانت النواة الحضرية في المدن العراقية القديمة ذات موقع مركزي واحد او منحرف قليلاً عن المركز، وذلك كناتج طبيعي للنمو العضوي للاحياء السكنية وخدماتها حول المعبد او مجموعة المعابد، كما في مدينة اريدو والوركاء ونفر وغيرها، لكن في المراحل التاريخية اللاحقة اخذت النواة الحضرية بالابتعاد عن مراكز المدينة كأن تتخذ موقعاً على حافة المدينة كما هو الحال في مدينة خورسباد الاشورية او ان تتخذ مركزاً خطياً كما هو الحال في مدينة بابل الاولى قبل توسعها.

لكن في بعض المدن ظهرت اكثر من نواة حضرية كما هو الحال في مدينة نينوى حيث ظهر النواة الثانية نتيجة للتوسع المدينة في عصورها اللاحقة، بينما تميزت بعض

المدن بعدم وجود نواة حضرية واضحة أذ انتشرت المواقع الدينية والسياسية بين المناطق السكنية وداخل اسوار المدينة، كما هو الحال في تل اسمر احد المواقع التابعة لمملكة اشنونا، وفي مدينة اخرى مثل تل حرمل كانت المعابد متقاربة ولكنها تقع بعد بوابة المدينة مباشرة، اعتبرت النواة الحضرية نقطة دالة مهيمنة على المشهد الحضري وهي بالنسبة للسومريين تمثل نقطة التقاء الارض والجنة وتذكرهم بالحضور الدائم للالهة.

الطرق في المدن العراقية القديمة

وجد في المدن العراقية القديمة نمطان من شبكات الطرق وهي:

النمط الاول: التخطيط غير المنتظم: وهو النمط الناتج من النمو العضوي لشبكة الطرق والشوارع حول النواة الحضرية، وكانت اغلب الطرق في اغلب المدن العراقية القديمة على هذا النمط.

النمط الثاني: النمط المحوري: يقوم هذا النمط على اساس وجود المحاور الاساسية والثانوية في المدينة تنبع من النواة الحضرية او موازية لها، وتقسم المدينة او القطاعات الى تقسيمات هندسية منتظمة، شاع هذا النمط في العديد من المدن سواء اكانت العضوية او التنظيم الهندسي.

القطاع السكني في المدن العراقية القديمة:

يتألف القطاع السكني في المدن العراقية القديمة من مجموعة من المباني السكنية ومرافقها التجارية والخدمية الاخرى، هذا الجانب يقع في الغالب خارج اسوار القلعة المحيطة بالنواة الحضرية، في الكثير من المدن العراقية القديمة اندمج هذا الجزء مع المعابد التي انتشرت فيما بعد، كما ذكرنا في تل اسمر وحرمل، وفي بعض المدن توسعت على الضفة المقابلة للنهر كما في بابل وبورسبا، بقيت النواة الحضرية على الضفة الاولى وشمل التوسع القطاع السكني فقط.

تحصين المدن بالاسوار

ظهرت الاسوار احد المعالم المهمة في المدينة ومنذ مراحلها التكوينية الاولى في الالف الرابع قبل الميلاد، فمدينة الوركاء كانت محاطة بسور ذي ابراج، ثم اصبحت

الابراج احد معالم الاسوار في المدن العراقية القديمة، وكانت على نوعين منها النصف اسطوانية وهي الاقدم ومنها ذات المقطع المربع او المستطيل وظهرت في العديد من المدن السومرية والبابلية والاشورية.

تميزت الكثير من المدن العراقية القديمة بوجود سورين الاول يحيط بالنواة الحضرية (سور القلعة) وظيفته احتواء النواة الحضرية وتحديد مداخلها، اما السور الثاني فيمتد على محيط المدينة وحدودها الخارجية ويضم القطاع السكني وخدماته، ويكون اكثر تحصيناً ومزوداً في الغالب بابراج دفاعية عديدة ويحاط بخندق مائي كما في بابل وغيرها من المدن.

الشكل العام للسور الخارجي للمدينة قد يكون عضوياً يتبع التنظيم العضوي للمدينة ونواتها او يكون ذو شكل هندسياً منتظماً سواء اكانت النواة هندسية منتظمة او عضوية الشكل.

انماط الهيئة الحضري للمدن العراقية القديمة.

1- النمط العضوي: نشأ هذا النمط نتيجة النمو الطبيعي للمدن حول النواة الحضرية وخاصة في المدن ذات النمو العضوي غير المنتظم، او نتيجة للطبوغرافية المتنوعة للتضاريس وخاصة في مدن العراق الشمالية.
2- النمط الهندسي: وجد هذا النمط بالدرجة الاساس في المدن مسبقة التخطيط، وقد برزت عدة اشكال للمدن هندسية التنظيم، منها المدن المضلعة مثل بابل وبورسبا وخورسباد والنمرود، ومنها المدن الدائرية التي ظهرت في شمال العراق واصبحت نمطاً مميزاً للمعسكرات الاشورية لخاصيتها الدفاعية والمركزية ومحوريتها العالية.

ومن الملاحظ في المدن ذات النمط الهندسي ان النواة الحضرية والتنظيم الاساس للهيئة الحضرية يكون ذا نمط هندسي واضحاً بينما يغلب النمط العضوي على تنظيم الازقة السكنية، ويمكن تفسير ذلك ايضاً في ضوء الابعاد الرمزية والقدسية التي تمتلها النواة الحضرية والتي تولى لها الاهمية الاساس في التنظيم والتصميم.

انواع مخططات المدن العراقية القديمة

اولاً: المدن المركزية: والتي تأخذ فيها النواة الحضرية موقعاً او تأثيراً مركزياً، ومنه تتفرع شرايين الحركة الاساسية، اما بشكل محوري او بشكل حلقي حول المركز، النمط هذا يعكس في الغالب تسلسلاً هرمياً في الاهمية بالنسبة للفعاليات.

ثانياً: المدن الخطية: وفيها يتحول تسلسل الاهمية الى تسلسل خطي، حيث يوجد محور اساس تتسلسل عليه الفعاليات حسب اهميتها، ففي بابل تحول الضفة النهرية الى شريان رئيس تدرجت علية الفعاليات، ابتدأ من القصر الملكي الصيفي مروراً بالمعابد المهمة وصولاً الى الزقورة، والمدن هذه تتميز بمحوريتها العالية والتي يمثل الشريان الخطي الرئيس المحور الاساس للمدينة.

ثالثاً: المدن الشبكية: وهو مزيج من النمطين السابقين، ويقوم على تقاطع محاور اساسية وثانوية بزوايا قائمة مقسمة المدينة الى قطاعات هندسية شطرنجية الشكل كما هو الحال في مدينة بابل بعد التوسعات ومدينة بورسبا.